المبحث الثالث

إشكاليات الاستيطان الإسرائيلي في الأماكن المقدسة "القدس والخليل" (الورقة الأولى)

فرج شلهوب*

مقـــدِّمة

امتاز الاستيطان الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية بوصفه استيطاناً إجلائياً احلالياً، وهو بمثابة جزء من سياسة شاملة لاختراق الوجود الفلسطيني، وفي الطريق إلى تصفية هذا الوجود وتدميره، عمد إلى تكريس حضوره على كامل الجغرافيا الفلسطينية بتأن، ولكن وفق خطة، وفي هذا كانت القدس والخليل، وبما لهما من خصوصية دينية، وما يوجد بهما من أماكن مقدسة، محوراً هاماً في خطة الاستهداف الاستيطاني الإسرائيلية، وليس من الصعب، استكشاف أن الاستهداف كان خاصا وبمزايا تفضيلية لدى مخططي الاستيطان اليهودي والداعمين له، سواء لجهة الكثافة أو نوعية الاستيطان وانتشاره، أو التركيز على حسم هوية المكان والسيادة فيه.

هذه الورقة محاولة للوقوف على جملة من المسائل في السياق الاستيطاني العام، وفيما يخص مدينتي القدس والخليل بوجه خاص، وهي محاولة لإعادة إنتاج الصورة الاستيطانية في المدينتين كما تبدو تاريخياً وجغرافياً، بما يتيح فسحة من التفكير لاشتقاق آليات عمل مناسبة، في ظل مرحلة سياسية تحفل بالكثير من الانتكاسات، واستنزاف الجهود، وربما بعيداً عن جوهر مواجهة النشاط والمشروع الصهيوني ومركزه، الهادف إلى ابتلاع الأرض وتشتيت الإنسان في فلسطين.

* مدير تحرير صحيفة السبيل، متخصص في الشؤون الفلسطينية.

القدس والاستيطان

- تأسست بلدية القدس في العهد العثماني عام١٨٦٣م.
- أقيمت أحياء وكنائس عديدة في المدينة بين عامي ١٨٤٢ - ١٨٩٧م، وبنيت نحو ٢٧ مستوطنة في القدس وحولها.
- تم بناء الأحياء اليهودية على امتداد الطرق المؤدية إلى بوابات المدينة الغربية والشمالية والجنوبية، وقد كان للقنصل البريطاني آنذاك مساهمة واضحة في مساعدة اليهود.
- أنشئت بين عامي ١٨٩٧-١٩٣٠م، ٢٤ مستوطنة أخرى داخل القدس وضواحيها، ليصل عدد المستوطنات في المدينة وحولها إلى نحو ٥١ مستوطنة.
- أول مستوطنة بنيت على أرض فلسطين كانت بتاح تكفا.
- عام ١٨٨٠م لم يتجاوز عدد اليهود ٣٠٠٠ نسمة، ليصل العدد عام ١٩١٨ إلى عشرة آلاف، فيما تقول مصادر إسرائيلية، أن العدد كان في العام ١٩١٤م نحو ٣٥ ألفاً[1].
- بدأت في عهد الانتداب البريطاني، مرحلة تغيير جذري في الواقع الجغرافي والسكاني في مدينة القدس لصالح المستوطنين، حيث ظهر التواطؤ بين سلطات الانتداب والمنظمة الصهيونية العالمية.

حدث التواطؤ عبر العمل في اتجاهين:

أ- توجيه مكثف للهجرة نحو القدس.

ب- دفع المخططات الهيكلية للمدينة باتجاه الغرب لتنمو الأحياء الاستيطانية.

- مع بداية الانتداب تم توسيع حدود بلدية القدس باتجاه الشرق، ليتم ضم المستوطنات اليهودية إلى المدينة مع إبقاء القرى العربية خارجها. بلغ دفع الحدود عدة كيلومترات نحو الغرب، لتشمل مستوطنات جفعات شاؤول وثكنات مونتفيوري وبيت هاكيرم وثكنات هبوعليم وبيت فجان التي تبعد ٧كم عن أسوار المدينة القديمة. ومن جهة الشرق تم دفع الخط لبضعة مئات من الأمتار فقط، ليقف خط الحدود على مداخل القرى العربية المجاورة "الطور، شعفاط، لفتا، دير ياسين، سلوان والعيسوية".

- في عام ١٩٤٦م جرى توسيع مخطط المدينة مرة أخرى باتجاه الغرب وجرى ضم الأحياء اليهودية الجديدة التي بقيت خارج التنظيم السابق، وقد بلغت مساحة هذا المخطط ٢٠١٩٩ دونماً[٢].

الناحية السكانية

- تم توجيه الكثير من المهجرين اليهود باتجاه الاستيطان في القدس. ليحدث انقلاب سكاني، فعلى سبيل المثال ٤٠,٧٪ من مجموع المهجرين اليهود في العام ١٩٢٢م استوطنوا في القدس وفي العام ١٩٣٠م استوطن منهم نحو ٣٠,١ ٪ في المدينة.
- بلغ عدد السكان الإجمالي في القدس عام ١٩٢٢م، نحو ٦٢ ألف نسمة، منهم ٢٨ ألفاً من العرب، و٣٤ ألفاً من اليهود.
- بلغ عدد السكان في القدس عام ١٩٣١م، ٩٠ ألفاً منهم ٣٩ ألفاً من السكان العرب، ونحو ٥١ ألفاً من اليهود.
- بلغ عدد السكان في القدس عام ١٩٤٤م، ١٥٧ ألفاً منهم ٦٠ ألفاً من العرب، و٩٧ ألفاً من اليهود حسب الإحصاءات البريطانية.
- أما القدس القديمة، فوفق إحصاءات وردت في تقرير المندوب البريطاني في هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٧م، أفادت أن عدد سكان القدس القديمة ٣٦ ألفاً منهم ٣٣,٦ ألفاً من العرب و٢٤٠٠ من اليهود[٣].
- ضم القسم العربي من القدس الجديدة ٣٩ الفاً، منهم ٣٠ ألفاً من العرب، و٩ آلاف من اليهود، فيما بلغ عدد سكان القسم اليهودي ٨٩,٥ ألف نسمة، منهم ١٥٠٠ من السكان العرب، و٨٨ ألف يهودي، ويعني هذا أن عدد سكان المدينة في نهاية عهد الانتداب بلغ نحو ١٦٤,٥ألفاً، منهم ٦٥ ألف عربي، و٩٩,٥ ألف يهودي[٤].
- جرى في ١٩٤٨/١/٣٠ توقيع وقف إطلاق النار، وتقسيم المدينة على النحو التالي٢٢٢٠ دونماً أي نحو ١١,٤٨٪ من مساحة المدينة تحت السيادة الأردنية، ١٦٢٦٤دونماً أي نحو ٨٤,١٢ ٪ من مساحة المدينة تحت السيادة الإسرائيلية، و٨٥٠ دونماً أي ٤٪ من مساحة القدس الكلية منطقة دولية.

- وافقت الحكومة الأردنية في ٤/ ١٩٥٢ على توسيع حدود المدينة، لتصل إلى نحو ٦٥٠٠ دونم المبني منها ٣٠٠٠ دونم، لتنضم بذلك إلى المدينة قرى سلوان، ورأس العامود والصوانة وأرض السمار، والجزء الجنوبي من شعفاط[٥].
- في الخمسينات والستينات أخذ توسع القدس الشرقية، يتجه شمالاً نحو قلنديا وشرقاً نحو أبو ديس والعيزرية.

وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى، أن النشاط الاستيطاني في القدس سار منذ احتلال العام ١٩٦٧م باتجاهين: الأحزمة والبؤر، استهدف الاتجاه الأول، تركيز أعداد كبيرة من المستوطنين حول القدس، أما الثاني، فقام على أساس اختراق استيطاني داخل البلدة القديمة تقوم به منظمات يهودية.

وفي حالة القدس، يمكن رصد ثلاث أطواق استيطانية حول المدينة:

الطوق الأول: يهدف إلى محاصرة البلدة القديمة داخل السور، ومحاصرة الأحياء العربية المجاورة تمهيدا لتفتيتها وإخلائها من السكان.

الطوق الثاني: على الأراضي الواقعة ضمن حدود أمانة القدس، ويتألف من الاحياء السكنية القلاعية التي تتخذ شكل القوس، وتحيط بالقدس الشرقية من الجنوب والشرق والشمال، ليتم الحصار الاستيطاني حول المدينة.

الطوق الثالث: ضمن مشروع القدس الكبرى، ويهدف لضم مساحات جديدة لبلدية القدس، لتغطي المدينة أكثر من ٢٠٪ من مساحة الضفة الغربية[٦].

المخططات الهيكلية

- قرر وزير الداخلية الإسرائيلي موشيه شابيرا في ٢٨/ ٧/ ١٩٦٧، ضم القدس الشرقية وتوحيد المدينة وتوسيع حدودها، حيث تم توسيع حدود المدينة ٩ كم شمالاً حتى مطار قلنديا و١٠ كم جنوباً حتى صور باهر، مع إخراج العديد من التجمعات السكانية العربية خارج حدود المدينة، حيث أخذت هذه الحدود شكلاً غريباً، مرة مع الخطوط الطبوغرافية وأخرى مع الشوارع، واتسعت مساحة القدس الشرقية من ٦,٥

كم٢ إلى ٥,٧٠ كم٢ لتصبح مساحة القدس الكلية ١٠٨كم٢، أي أن التوسع جاء في المنطقة الشرقية لخدمة المخططات الإسرائيلية الاستيطانية فيما وراء الخط الاخضر، ولعزل المدينة من الشرق عن العمق العربي في الضفة.

- جرى عام ١٩٩٠ توسيع المخطط باتجاه الغرب، ليستوعب بذلك التجمعات اليهودية الجديدة غرباً، لتصبح مساحة المدينة ١٢٣كم٢.(٧)

التغيرات داخل المدينة القديمة

- وزير الحرب الإسرائيلي موشيه ديان، يأمر بهدم حي المغاربة وجزء من حارة الشرف وحارة السريان المجاورة للحرم القدسي، وترحيل أكثر من ١٠٠٠ من سكانها العرب لكشف حائط المبكى، وعمل ساحة أمامه وفتح طريق مباشر نحوه، وبناء حي يهودي مكان الحي العربي، وإسكان نحو ٦٠٠ أسرة يهودية فيه.
- في عام ١٩٦٨ تمت إعادة بناء الحي اليهودي، وأسكنت فيه ٢٧٠ أسرة يهودية، وعمدت سلطات الاحتلال لوضع يدها على العديد من المنازل والعقارات، بحيث أصبح اليهود يملكون ٨٤٪ من عقارات القدس القديمة(٨).
- هدم العديد من المنازل المحيطة بالسور الخارجي للمدينة القديمة، وإقامة حدائق ومتنزهات فيما سمي الحزام الأخضر، في باب العمود وباب المغاربة وحي العمرية، باسم متنزه الحرية.

التغييرات في الأحياء خارج السور

- بناء حي سكني ومجمع استيطاني فوق جبل سكوبس "المشارف" الذي تقوم عليه الجامعة العبرية، وربطه بالقدس بمبان سكنية للمستوطنين باسم "حي شابيرا".
- بناء مستوطنة رامات أشكول في حي الشيخ جراح.
- بناء مستوطنة معاليه دفنا شمال حي الشيخ جراح، وبناء حي استيطاني ومبان جامعية ومبان للوزارات فوق جبل الزيتون.

- في عام ١٩٧٤م أقرت لجنة تنظيم المدن، إقامة مركز تجاري وسط المدينة العربية على مساحة ٢٧٠٠ دونم على المساحة الممتدة من مقبرة ماميلا إلى المستشفى البلدي، ومن محطة سكة الحديد جنوباً وطريق يافا شمالاً وسور القدس ووادي الجوف شرقاً[٩].
- إقامة مستوطنة في رأس العمود استمراراً لعملية اختراق الأحياء العربية.

الأحزمة والأحياء الاستيطانية المحيطة بالقدس

- بناء سلسلة من المستوطنات والأحياء الاستيطانية ذات الأبنية العالية، التي تشكل جدراناً استيطانية تفصل القدس عما حولها.
- مع بداية الثمانينات، تكوّن حول القدس جدارا من المستوطنات من جهة الشرق على شكل نصف دائرة، يضم "رامات، اشكول، الشيخ جراح، جلال دفنا، سنهداريان، النبي يعقوب" شمال بيت حنينا "التلة الفرنسية" طريق رام الله، الجامعة العبرية على جبل المشارف، تل بيوت، جبل المكبر، راموت "النبي صموئيل"، جيلو، "قرية شرفات العربية"، جفعات همفتار "تل الذخيرة"، عنتوت "عناتا"، وفي الدائرة الأبعد ضم المخطط الإسرائيلي، معاليه أدوميم "الخان الأحمر"، جيعون "الجيب"، نيفي حورون "عمواس ويالو" مخميش، حلميش، جفعات حداش، عطروت "قلنديا" جفعات زئيف، بسغات زئيف، بيتار "بتير"، مستوطنة أبو غنيم فوق أراضي صور باهر وبيت ساحور[١٠].

السكان وملكية الارض

- حدث اختراق جغرافي وديموغرافي وخلخلة للسيطرة السكانية والجغرافية العربية.
- في عام ١٩٦٧م كان السكان العرب يمثلون ١٠٠٪ من سكان القدس الشرقية، ويسيطرون على ١٠٠٪ من مساحة الأراضي.

بعد عمليات المصادرة وإقامة المشروعات الاستيطانية، أصبحوا لا يسيطرون إلا على ٢١٪ من هذه المساحة. فيما عدد المستوطنين يقترب من عدد السكان العرب، فثمة نحو ١٧٠ ألف مستوطن في القدس الشرقية، وضمن الأحزمة الاستيطانية حول المدينة،

مقابل ٢٠٠ ألف عربي مطلع عام ٢٠٠٠، وفق مركز الإحصاء الإسرائيلي، يشكلون ما نسبته ٣١,٥ ٪ من مجموع سكان المدينة الموحدة.

- رغم كل مخططات الاستيطان والتهويد وتزايد أعداد اليهود وما رافقها من أعمال طرد وهدم بيوت، تزايدت نسبة السكان العرب إلى مجموع سكان المدينة من ٢٦,١ ٪ عام ٦٧ إلى ما يقارب ٣١,٥ ٪ عام ١٩٩٩م.
- وضعت لجنة خبراء إسرائيلية تقريرا مفصلا في العام ١٩٨٧م، بناء على طلب من الحكومة حول مشروع القدس الكبرى.

عرض التقرير الذي يهدف لتحقيق أغلبية يهودية ساحقة في عام ٢٠١٠ في مدينة القدس، بحيث يعاد انتاج نسبة ٦٩٪ يهود و ٣١٪ عرب بصورة متواصلة.

يقول تقرير اللجنة في ذلك الوقت: "يعيش ضمن حدود القدس الكبرى نحو مليون وربع المليون من السكان ٥٥٪ يهود و٤٥٪ عرب. وبالتالي فالمطلوب تكثيف الاستيطان في منطقة القدس الكبرى، وضم مستوطنات بعيدة إلى حدود البلدية مثل معاليه أدوميم على طريق أريحا- القدس وجبعات زئيف شمال غرب المدينة، ومستوطنة كفار عتصيون في شمال غرب بيت لحم.. وهذا يعني ضم واقعي للمنطقة المحيطة بالقدس لإسرائيل، يشار إلى أن مستوطنة معاليه أدوميم، حصلت على نحو ٥٠كم٢ من أراضي الضفة الغربية.

الاستيطان في مدينة الخليل

- شكل اليهود في مدينة الخليل أقلية محدودة على مدى نحو قرن ونصف، ولعل عام ١٨٨٠ قد سجل أقصى تعداد وصلت إليه الطائفة اليهودية في المدينة قبل الاحتلال، حيث بلغ تعدادهم بين ١٠٠٠ - ١٢٠٠ نسمة، وبنسبة تتراوح بين ١٠-١٢٪ من مجموع السكان الذي بلغ آنذاك نحو عشرة آلاف.
- تأرجحت أعداد اليهود قبل هذا التاريخ وبعده بصورة كبيرة، بين الازدياد المحدود والنقص الشديد. ولعل الجدول التالي يوضح هذا التأرجح[١١].

السنـــة	السكان اليهود	السكان المسلمون	نسبة اليهود
١٨٣٤	٢٤١	١٥٠٠	٪١٦
١٨٥١	٤٥٠	١١٠٠٠	٪٤
١٨٧٥	٦٠٠	١٧٠٠٠	٪٥,٣
١٩٢٢	٤٣٠	١٦٠٧٤	٪٧,٢
١٩٣١	١٣٥	١٧٢٧٦	٪٨,٠

- في العام ١٩٢٩م وبعد أحداث البراق، حدثت خلافات عميقة بين السكان المسلمين واليهود، على خلفية مناصرة يهود الخليل للتحركات الصهيونية الداعمة لفكرة تكثيف الهجرة والاستيطان، الأمر الذي أدى إلى مقتل عدد من اليهود وهو ما دفع الانتداب البريطاني إلى ترحيل اليهود من الخليل إلى القدس.
- كانت أملاك اليهود في القرى والأرياف صغيرة جداً، ولم تتجاوز ٢٠ دونماً من أرض الخليل العمران، و٤٤ دونماً من أرض الخليل الريف، أي ما نسبته ٨٠٪ من أرض المدينة والمحافظة[١٢].
- شهدت الخليل منذ عام ١٩٦٧ عدداً من المراحل في استراتيجية التهويد، بهدف خلق واقع جغرافي يهودي في المدينة وضواحيها، أبرزها:

أ- تم عام ١٩٧٠ إنشاء مستوطنة كريات أربع كنواة استيطانية خارج المدينة، وذلك قبل بدء عملية الاستيلاء على بعض الأماكن داخل المدينة نفسها.

ب- الاستيلاء على بعض الأبنية داخل المدينة وتحويلها إلى أحياء سكنية لليهود.

ج- العمل على فرض التواصل الجغرافي بين الأنوية الاستيطانية داخل المدينة ومستوطنة كريات أربع، من خلال الأنفاق والطرق التي أضرت كثيراً بحياة المواطنين الفلسطينيين.

الاستيطان داخل المدينة

- كانت البداية في ١٠/ ٥/ ١٩٦٨، حيث وصلت مجموعة من المستوطنين اليهود، وعددهم ٧٣ مستوطناً إلى المدينة، وأقاموا في فندق النهر الخالد قبل أن يعلنوا نيتهم إعادة إسكان الطائفة اليهودية في الخليل.
- كانت باكورة أعمال هذه المجموعة، في إقامة بعض الفعاليات الاقتصادية في منطقة الحرم الإبراهيمي، حيث توجد مغارة "الماكيفلا" حيث أقاموا مطعماً "كاشيد" للزائرين اليهود، ثم حوانيت لبيع الأدوات الدينية والتذكارية.
- شرعت الحكومة الإسرائيلية في١٩٦٨، بإقامة مدرسة دينية لاستقطاب المستوطنين.
- أدت زيادة زيارات المستوطنين للحرم الإبراهيمي، إلى تحويل جزء من المسجد إلى غرفة صلاة، تمهيداً للسيطرة على المسجد وجواره.
- تم في ١٩٦٨ إقرار إقامة كنيس مقابل المسجد الإبراهيمي، في أول خطوة لفرض واقع جغرافي يهودي داخل مركز المدينة.
- استثمر الاحتلال الأحداث وأي مقاومة شعبية لها، في تعزيز قبضته على المدينة، وهدم عدد من البيوت بحجج أمنية.
- استمرت جهود الاحتلال في زرع البؤر والمواقع الاستيطانية داخل المدينة.
- في العام ١٩٧٩ احتلت مجموعة من النساء اليهوديات مبنى الدبويا وتم طرد سكانه، ليتحول المبنى إلى أهم البؤر الاستيطانية في التأثير على المدينة، عبر تشديد الإجراءات الأمنية، وسياسات الضغط على السكان لإجبارهم على الرحيل.
- تم في ١٩٨٥ الاستيلاء على مدرسة أسامة بن منقذ، وأقيمت فيها بؤرة استيطانية سميت "بيت رومانو" وتم تشييد بناية ضخمة في المكان. لاحقاً تمت السيطرة على منطقة الكراجات لاستخدامات الجيش والمستوطنين، والحجة أمنية للحفاظ على الأمن والنظام.

- صادق وزير الجفاع الإسرائيلي في ٩/ ٤/ ١٩٨٤ على إقامة بؤرة استيطانية في تل روميدة "رامات شاي"، تقيم فيها ١٥ عائلة في وسط المنازل الفلسطينية، وتسكنها عائلات متطرفة من كاخ.
- أقام المستوطنون في ١٩٨٥ بناية ضخمة في سوق الخضار بجانب بناية الأوقاف الإسلامية، بدعوى وجود كنيس يهودي في الموقع.
- سيطر المستوطنون في ٥/ ٦/ ١٩٩٦ على منطقة قنطرة الحمام، وأقاموا فيها بؤرة استيطانية جديدة.

الاستيطان على هوامش المدينة وخارجها

- عام ١٩٧٠ أنشئت مستوطنة كريات أربع والتي يسكنها نحو ستة آلاف مستوطن.
- عام ١٩٨٢ أقيمت مستوطنة خارصينا شرق شمال المدينة.
- عام ١٩٨٤ أقيمت مستوطنة بيت حاجاي جنوب المدينة.
- أقيمت بؤرة استيطانية في منتصف المسافة بين بيت حاجاي وكريات أربع، تحت اسم "عاز"[١٣].
- أكد المهندس عبد الهادي حنتش خبير الخرائط والاستيطان، عضو اللجنة العامة للدفاع عن الأراضي، أن حجم المصادرات للأراضي في مدينة الخليل هي الأشرس، وبلغت ٦٢٪ من مساحة المدينة التي تقدر بأكثر من مليون و٢٠٠ ألف دونم، حيث تم إنشاء ١٨ بؤرة استيطانية جديدة منذ بدء الانتفاضة إضافة إلى ٢٧ مستوطنة قائمة سابقا على أراضي المحافظة، ومنذ اتفاق أوسلو وحتى قبل الانتفاضة تم الاستيلاء على ٢٧٦ ألف دونم من مساحة الخليل. وأفاد أن الإحصاءات تشير إلى وجود ١٢ ألف مستوطن في الخليل مقابل نصف مليون فلسطيني[١٤].

مصادرة الاراضي

- حتى عام ١٩٩٥م صودر من أراضي الخليل ٤٠٠ ألف دونم، أي ما نسبته ٣٦٪ من مساحة المحافظة، وذلك لأغراض عسكرية واستيطانية.

- في ٢٧/ ٣/ ١٩٩٦م أغلقت بأمر عسكري، منطقة على حدود الخط الأخضر جنوب غرب الخليل، قدرت مساحتها بـ١٩٠كم٢ أي ما يعادل ١٧٪من مساحة المحافظة.
- تمت مصادرة ٧ آلاف دونم تحت ذريعة إقامة محميات طبيعية.
- تم تأجير ٥ آلاف دونم لمستثمرين يهود كمحاجر وكسارات.
- تمت مصادرة ٤٥٠٠ دونم، لإقامة طرق إلتفافية لاستخدامات الإسرائيليين.
- يصنف المستوطنون في الخليل، بأنهم الأكثر تشدداً والأكثر تحمساً لفكرة "أرض إسرائيل الكاملة".
- يقيم ٤٠٠ مستوطن وسط المدينة ينغصون حياة السكان، وهدف جملة الإجراءات اقتلاع آلاف الفلسطينيين من المدينة القديمة، وفرض أمر واقع يكون فيه معظم المنطقة القديمة المسماة (H2) والتي تمثل ٣٠٪ من إجمالي مساحة المدينة فارغة من أي تواجد فلسطيني[١٥].

إسرائيل والمقدسات الإسلامية

احتلت الاعتداءات الإسرائيلية على المقدسات الإسلامية وعقارات الوقف الإسلامي في فلسطين، مساحة واسعة من جملة الاعتداءات الإسرائيلية، وقد بدأت منذ فترة زمنية مبكرة من عمر الاستيطان اليهودي وتواصلت عبر المدى الزمني للاحتلال.

فالدعاية الدينية لاستجلاب المهجرين، ركزت على استيطان فلسطين، من أجل إعادة بناء الهيكل على جبل موريا في القدس، وحول قبور يعتقد أنها لأنبياء أو شخصيات عاشت في العصر الإسرائيلي القديم مثل قبر راحيل زوجة النبي يعقوب، وأم النبي يوسف في بيت لحم، وقبور إبراهيم وإسحق ويعقوب وزوجاتهم في الحرم الإبراهيمي وقبر يوسف النجار في الخليل، وقبر النبي يوسف في قرية بلاطة / نابلس، وقبر النبي صموئيل والنبي داوود في القدس.

- كانت البداية في تنشيط الزيارة إلى هذه المواقع، وبصورة مكثفة، ثم مجاورة هذه الأمكنة وملازمتها، لخصوصيتها الدينية، ليتهيأ الأمر لاحقا لمحاولات الاستيلاء والسيطرة وتوسيع الاستيطان في المنطقة.

وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى بعض نماذج الإعتداء على المقدسات الإسلامية ومحاولات السيطرة عليها.

١- حائط البراق

- يشيع اليهود أن الحجارة الضخمة التي بني منها الحائط الغربي لسور المسجد الأقصى تعود لفترة الهيكل الثاني، وأن هذه الحجارة جزء من حجارة الهيكل الذي أحرقه ودمره الحاكم الروماني تيطس عام ٧٠م. ثم أزال بقاياه الإمبراطور هدريانوس عام ١٣٥م. بينما يؤكد المسلمون، أنه الحائط الذي ربط به البراق في رحلة الإسراء.
- في القرن الثامن عشر، تزور وفود اليهود الحائط وتصلي عنده نائحة متذكرة خراب الهيكل، ودمار مملكة "إسرائيل"، ليسموه لاحقاً حائط المبكى.
- سمح المسلمون لليهود بهذه الزيارة، والوقوف على الرصيف الملاصق للحائط، دون إحداث أي تغيير في معالم المكان.
- أول محاولة يهودية لتغيير الوضع جرت في حكم إبراهيم باشا لبلاد الشام، في أيار ١٨٤٠م حيث طلب اليهود توسيع الرصيف، وإحداث بعض التغييرات، فرفضت الإدارة المصرية.
- المحاولة الثانية، إبان الانتداب البريطاني، حيث تمت محاولة لنقل ملكية الحائط عبر الرشاوى والضغوط، ولكنها فشلت.
- حاول اليهود عام ١٩٢١ وضع حنفية ماء وكراس للجلوس على رصيف الحائط، ولم تنجح المحاولة، وتم عرض مبالغ ضخمة على الحاج أمين الحسيني لإقناع المسلمين بالتنازل عن ملكية الحائط، ولكن دون نتيجة.
- في عام١٩٢٧ تقوم جمعية هامزراحي في أمريكا، بتحرك بين يهود العالم للاتحاد، وطلب السيطرة على الحائط الغربي وقبر راحيل.
- في العامين ١٩٢٨-١٩٢٩م، تصاعدت حدة الصراع على المكان لتصل إلى صدامات مسلحة راح فيها عشرات القتلى، وهو ما تمخض عنه تشكيل لجنة دولية حضرت لدراسة النزاع، وأثبتت أن ملكية الحائط تعود للمسلمين[١٦].

٢- قبر راحيل

- محاولة في العشرينات للاستيلاء على القبر، لاتخاذه مزاراً، تصدى المجلس الإسلامي الأعلى للمحاولة، ووصل الأمر للقضاء حول ملكية قطعة الأرض قرب القبر التي حاول اليهود إنشاء غرفة عليها، لتحكم المحكمة بصحة ملكية الوقف الإسلامي، ودحض أي ملكية لليهود.
- في أيلول ١٩٢٦ محاولة أخرى لترميم الموقع من قبل اليهود، بالتنسيق مع دائرة الأشغال البريطانية والاستيلاء على المفاتيح. ولإفشال محاولات الاستيلاء على أرض المقبرة الاسلامية المحيطة بالقبر، أنشأ المجلس الإسلامي الأعلى سوراً عليها، وأجرى ترميماً شاملاً للقبر.

٣- القدس الغربية

- في ١٧/ ٨/ ١٩٢٩ بعد خمسة أيام من أحداث البراق، هاجم اليهود مسجد عكاشة والقبة القيمرية في حي عكاشة الواقع شمال غربي القدس.
- تم تحويل مسجد عكاشة إلى مستودع.
- أهملت القبة القيمرية فعاث بها الحشاشون فساداً وأصبحت مركزاً للمنكرات.
- حوّل مقام أحمد بن ثور، الواقع في القسم المحتل من الحي الثوري في القدس الغربية، إلى منزل لعائلة يهودية بعد هدم الضريح.
- مقبرة مأمن الله، "ماميلا" التاريخية، دمر الإسرائيليون معظمها، وقدرت المساحة المتبقية، بنحو ثمن المساحة الأصلية البالغة ١٣٤دونماً.
- تعود هذه المقبرة إلى عهد الفتح الصلاحي للقدس، حيث دفن فيها صلاح الدين وآلاف المجاهدين الذين استشهدوا في الحروب، وتوالى الدفن فيها بعدئذ إلى أن أصبحت أكبر مقبرة في القدس، حيث ضمت قبور مئات العلماء والفقهاء والأدباء والأعيان والحكام من المدينة.

أنشأ الإسرائيليون على الجزء المدمر من المقبرة، حديقة الاستقلال ومواقف للسيارات وفندق بلازا الضخم وخدمات عامة، كما فتحت فوق أرضها الشوارع والطرق حتى يتم طمس معالم المقبرة.

٤- مقام النبي داوود

- يقع على جبل صهيون، خارج سور القدس القديمة وعلى بعد أمتار قليلة منه، ويضم القبر الذي يعتقد أن النبي داوود دفن فيه وإلى جواره مدفن سليمان الحكيم، ومسجدان أحدهما الكبير والثاني الصغير، وفوق المسجد الكبير علية العشاء السري، وهو المكان الذي يعتقد المسيحيون، أن السيد المسيح عليه السلام تناول فيه عشاءه السري الأخير، قبل أن يقبض عليه الرومان بوشاية يهوذا الأسخريوطي.
- حاول اليهود خلال حكم المماليك الاستيلاء على القبر، وإبعاد الرهبان الفرنسيسكان عنه الذين تمتعوا ببعض الحقوق فيه، ونجحوا في عام ١٤٢٠ ولكن نجاحهم كان قصيراً.
- خلال العهد العثماني والانتداب البريطاني، سمح لليهود في أوقات معينة، بزيارة المكان، وبقي المسجدان عامرين بالصلاة طوال الفترة، ولم تؤثر زيارات الملل الأخرى للموقع على إسلامية المقام والمسجدين.
- في عام ٤٨ احتل الإسرائيليون "حي النبي داوود" وكان جميع سكانه من آل الدجاني الذين كانوا سدنة المقام لأربعة قرون ونصف، واعتبر الحي منطقة محرمة لا يجوز لأحد من العرب دخولها، قبل أن يعاود اليهود محاولات السيطرة على المكان وما فيه من ممتلكات، ومنع سكانه من العودة إليه، والقيام بهدم نحو ٢٠٠ بيت، وإزالة جميع الآيات والنقوش التي تشير إلى إسلامية المقام، وجعلوا منه كنيساً يهودياً، وكتبوا العبارات العبرية على جدرانه.
- في عام ١٩٥٠ أقيم متحف في المكان، يعرض آثاراً ادعى اليهود، بأنها تعود لليهود في فلسطين.

- في ١٥ أيار/١٩٥٨ وفي العيد العاشر لقيام دولة "إسرائيل"، اختار زعماء "إسرائيل" الموقع للاحتفال بهذه المناسبة كمظهر لنجاح الحركة الصهيونية(١٧).

فالمعبد أصبح ينسب للنبي داوود، والجبل جبل صهيون الذي إليه تنتسب الصهيونية.

استخلاصات ونتائج

من جملة ما تم عرضه يمكن الإشارة إلى عدد من الاستخلاصات التي تمثل قراءة للتمايزات التي طبعت الاستيطان في القدس والخليل، والتي هي في جوهرها، إشكالات ترسخت في الواقع، ويحتاج الأمر معها إلى وقفة عميقة لتحديد الطريق للمستقبل.

١- استهدف الاستيطان في القدس والخليل، بالأساس السيطرة على الأماكن الإسلامية المقدسة، (الحرم القدسي، الحرم الإبراهيمي) والدعاوى الإسرائيلية على هذا الصعيد، تزعم ملكية المكان وترفض التنازل عن السيادة عليه، فالهيكل موجود في مكان المسجد الاقصى، والتنقيب عن بقية آثار الهيكل تتم تحت أساسات المسجد، وحائط البراق هو حائط المبكى وحجارته هي حجارة الهيكل الثاني. حتى خارج حدود البلدة القديمة في القدس، فالدعاوى اليهودية تتواصل حول ملكية مقام النبي داوود، والعديد من الأماكن الدينية الأخرى، وهو الحال نفسه في التعاطي مع الحرم الإبراهيمي، حيث قبور الأنبياء إبراهيم وإسحق ويعقوب وزوجاتهم.

ومن ثم فالاستيطان من وجهة نظر إسرائيلية، يأتي باعتباره حاجة لفرض السيطرة على المكان وجواره، وبصورة حاسمة تمنع خلخلة السيطرة اليهودية بأي صورة من الصور، أو السماح بكثافة سكانية حوله تهدد الأغلبية اليهودية في أي وقت من الأوقات.

٢- الاستيطان في مجمل المدن الفلسطينية في الضفة وغزة، باستثناء القدس والخليل، لم يقترب حتى التماس مع التجمعات السكانية العربية، وظل محافظاً على مسافة ما مع هذه التجمعات، في الوقت الذي كان الاستيطان في المدينتين، يتحرك وفق مسارين

الأحزمة والبؤر، الأول يستهدف العزل وتكثيف الوجود اليهودي وتعزيز السيطرة على الأرض، والثاني يتغلغل داخل التجمعات السكانية العربية، وتحديداً المناطق ذات الخصوصية الدينية، بهدف إحكام السيطرة فيها وحولها، عبر سياسة متأنية ومواظبة دون انقطاع، وهو ما يجعل الانفكاك بين ما هو عربي ويهودي في هذه المناطق أمراً أكثر تعقيداً، في ظل حجم التداخل وكثافة التغيير الجغرافي والديمغرافي وتعنت الجانب الإسرائيلي. وهو ما برز بصورة واضحة في المفاوضات حول إعادة الانتشار في مدينة الخليل، واستثناء مدينة القدس ابتداءً من أي حديث في المفاوضات السابقة.

٣- حرص الاستيطان على السيطرة على أوسع نطاق من جغرافية المدينتين، ففي الوقت الذي كانت تتم فيه عمليات التوسيع لمدينة القدس بصورة متواصلة وبمساحات كبيرة، باتجاه الغرب في مرحلة ما قبل احتلال الـ٦٧ وباتجاه الشرق داخل أراضي الضفة الغربية بعد احتلال ٤٨، فإن ٦٢٪ من أراضي الخليل تمت مصادرتها بصورة أو بأخرى. وهو الأمر الذي يمكن رصده أيضاً على الصعيد الديموغرافي، بصورة صارخة في القدس، حيث القرار الإسرائيلي الواضح بالمحافظة على نسبة الكثافة اليهودية بما يتجاوز الثلثين، في كل مرحلة من مراحل توسيع المدينة، أو في تركيز الجهود الاستيطانية في الخليل على البلدة القديمة، وما رافق ذلك من تعزيز للوجود اليهودي وتفريغ للمنطقة من السكان العرب، ضمن سياسة متواصلة في ظل سيطرة عسكرية كثيفة.

وفي هذا يشار إلى أن اللجنة الوزارية الإسرائيلية لشؤون القدس، دعت إلى أن تكون نسبة اليهود والعرب في مدينة القدس ٧٦٪ يهود مقابل ٢٤٪ عرب وهو ما تحقق، حيث نجح اليهود في إجراء التهويد الديمغرافي للقدس الشرقية بنسبة ٥٠٪، مقابل تهويد ٧٩٪ من جغرافية المدينة.

٤- يلاحظ وبصورة جلية، أن الاستيطان في القدس والخليل، سبق الاستيطان في أي منطقة فلسطينية أخرى، فأول مستوطنة كانت في القدس، ونحو ٤٠٪ من المهجرين

اليهود عام ١٩٢٢م و٣٠٪ في العام ١٩٣٠ استوطنوا في القدس. فيما حسم الجانب اليهودي وفي مرحلة مبكرة وقبل احتلال ٤٨ بعقدين، مسألة التفوق السكاني في مدينة القدس. فيما بدأ الاستيطان اليهودي لمدينة الخليل قبل نحو قرنين، وهو ما يعكس حضور المدينتين بصورة خاصة، في المخطط الصهيوني الساعي للسيطرة على الأرض الفلسطينية. ويفسر ما جاء في خطة الليكود والعمل حول المناطق التي ستضم إلى دولة "إسرائيل" في إطار التسوية الدائمة، حيث نصت الخطة صراحة، على مناطق القدس الكبرى، وبيت إيل وجزء من مستوطنات بنيامين وجنوب جبل الخليل وغربي السامرة، حيث يعيش نحو ١٥٢ ألف مستوطن يمثلون ٧٥٪ من مجموع المستوطنين في الضفة الغربية.

٥- نسبة كبيرة من المستوطنين في القدس والخليل، هم من اليهود الأكثر تطرفاً والأكثر تحمساً لفكرة "إسرائيل" الكاملة، وهو ما يعني أنهم الأكثر رفضاً لفكرة التعايش وإمكانية قسمة الجغرافيا، وهو ما يجعل فكرة التسوية في هذين الموضعين أكثر استحالة، كما يديم حالة الاحتقان والتوتر، وما يجره ذلك من فرض شروط أمنية وتواجد عسكري إسرائيلي كثيف، مقارنة مع مدن فلسطينية أخرى في الضفة، وما يصاحب ذلك من سياسات تضييق على السكان العرب، وانتهاج سياسات صارمة لإجبارهم على الرحيل، بحجج أمنية لحفظ الأمن ومنع الاحتكاك بين السكان.

٦- من الإشكاليات التي أخذت بالبروز على خلفية مشهد التسوية السياسية، أن محاولات الاحتلال للسيطرة على بعض الأماكن المقدسة، كانت تؤول في النهاية إلى قبول الجانب الفلسطيني بالدعاوى الإسرائيلية والتأقلم معها، حدث هذا في قضية حائط البراق، وقبر راحيل، ومقام النبي داوود، وهو الأمر الذي يخشى أن يحدث شيء قريب منه، فيما يتعلق بقسمة الحرم الإبراهيمي، أو إمكانية دخول اليهود إلى مواقع داخل الحرم القدسي هي بالقطع أماكن إسلامية مقدسة. وكأن ما تم من إقرار سياسي حول اعتبار الأراضي المحتلة عام ٤٨ أرضاً إسرائيلية دون منازعة، يعاد تطبيقه بصورة جزئية فيما يتعلق بالأماكن المقدسة، تحت ضغط الغطرسة

الإسرائيلية، وعجز الجانب العربي عن تحريك المشهد حول الأماكن المقدسة، لغير صالح الجانب الإسرائيلي.

٧- من الإشكاليات التي لم تعد تخفى على أحد، أن المخطط الإسرائيلي مستمر وغير قابل للتوقف، فرغم مرور عقد من التفاوض السياسي، إلا أن قراراً واضحاً بوقف الاستيطان لم يتحقق، فضلاً عن أن الموقف الإسرائيلي، يرفض التجاوب مع أي طرح يتعلق بعدم تغيير الوضع الديموغرافي والجغرافي في مدينتي القدس والجزء المستهدف من الخليل بصورة خاصة، وكما يبدو أن التصور الإسرائيلي حتى في ظل الاتفاق السياسي، لا يرغب في المساواة بين الوضع الذي يمكن أن يسود في المدينتين، وما يمكن التوافق عليه في باقي مدن الضفة الغربية.

٨- إشكالات أخرى على الصعيد السياسي والتفاوضي هناك:

أ- ثمة إصرار إسرائيلي على فكرة السيادة على القدس الشرقية التي تمثل حدود ٤/ حزيران/ ٦٧، والتي نص القرار ٢٤٢ على إعادتها للجانب العربي.

ب- ثمة اصرار اسرائيلي آخر على ضم أراض واسعة من الضفة الغربية، أقيمت عليها المستوطنات الإسرائيلية المحاذية للقدس من جهة الشرق، مثل معاليه أدوميم وجفعات زئيف وكفار أدوميم.

جـ- يصر الجانب الإسرائيلي على عدم تقسيم مدينة القدس أو عودتها لما كانت عليه قبل عدوان ١٩٦٧.

د- طرح التقاسم الوظيفي فيما يتعلق بالحرم القدسي والأماكن المقدسة الأخرى.

هـ- عدم التطرق لعودة اللاجئين الفلسطينيين من أصل مقدسي، ولا لأملاكهم المصادرة بصورة جادة في القدس الغربية، والاكتفاء بالحديث حول هذه الموضوع فقط، عندما تتشدد "إسرائيل" في موقفها إزاء موضوعات التفاوض في القدس الشرقية، علما بأن هناك إحصاءات تتحدث عن أكثر من ٤٠٠ ألف مقدسي حرموا من العودة، أو حق الإقامة في مدينتهم، بينهم نحو خمسين ألفا كانوا خارج المدينة عشية العدوان عليها عام الـ٦٧.

ملحق

الاستيطان في القدس أهم المستوطنات في القدس المحتلة

اسم المستوطنة	مساحة الأرض العربية المصادرة (بالدونم)	اسم الأرض العربية المصادرة	عدد سكان المستوطنة	مساحة المستوطنة (بالدونم)	سنة التأسيس
النبي يعقوب	١٨٣٥	-	١٩٣٠٠	٨٦٢	-
راموت	٤٨٤٠	-	٣٧٢٠٠	٢٨٧٥	١٩٧٢
جيلو	٢٧٠٠	بيت صفافا	٣٠٢٠٠	٢٧٤٣	١٩٧١
تلبيوت الشرقية	٢٢٤٠	صور باهر	١٥٠٠٠	١٠٧١	١٩٧٣
معلوت دفنا	-	-	٤٧٠٠	٣٨٩	١٩٧٣
الجامعة العبرية	-	العيسوية ولفتا	٢٥٠٠	٧٤٠	١٩٢٤ وحتى ١٩٦٧
ريخس شعفاط (جبعات هاشعفاط)	-	بيت حنينا وشعفاط	-	١١٩٨	١٩٩٠
رامات أشكول (جبعات همفتار)	٣٣٤٥	لفتا وشعفاط	٦٦٠٠	٣٩٧	١٩٦٨
بسجات زئيف وبسجات عوفر	٣٨٠٠	بيت حنينا وشعفاط وحزما وعنبتا	٣٠٠٠٠	-	-
عطروت	١٢٠٠	قلنديا والرام وبير نبالا وبيت حنينا	-	١١٥٨	١٩٧٠
جبعات هاماتوس	٩٨٠	بيت صفافا وبيت جالا	-	١٧٠	١٩٩١
هار حوماه	١٨٥٠	صور باهر وأم طوبا وبيت ساحور	-	١٧٠	١٩٩١
التلة الفرنسية	-	لفتا وشعفاط	٦٥٠٠	٨٢٢	١٩٦٨
ماميلا	١٣٠	حي الشماعة في الخليل	-	-	تحت التأسيس

الهوامش

١- أحمد عثمان/ دراسة حول الاستيطان/ الشرق الأوسط ١٩/ ١١/ ,٢٠٠٠

٢- تطور مدينة القدس جغرافيا وسكانيا/ محمد رشاد الشريف/ معلومات دولية-العدد ٦٥ صيف ,٢٠٠٠

٣- تطور مدينة القدس/ مرجع سابق.

٤- عارف العارف/ المفصل في تاريخ القدس ص,٤٣٠

٥- خليل التفكجي/ دراسة حول التهويد في القدس/ الدستور ١٣/ ٢/ ,٩٧

٦- إسرائيل والقدس تشويه التاريخ وتزييف الجغرافيا/ عبدة معروف.

٧- خليل التفكجي/ مصدر سابق.

٨- النهار/ ملف القدس/ حلقة٢ تاريخ ١٤/ ٨/ ,٢٠٠٠

٩- روحي الخطيب/ المؤامرات الإسرائيلية على القدس ص,٥٩

١٠- القدس بين براثن التهويد والاستيطان/ محمد رشاد/ ملف ص,٧٠

١١- التهويد والاستيطان في مدينة الخليل/ مكتب ملف الخليل.

١٢- التهويد والاستيطان في مدينة الخليل.

١٣- التهويد والاستيطان مرجع سابق.

١٤- حرب استيطانية قذرة برسم خطة شارون/ فضل عطاونة.

١٥- التهويد والاستيطان/ مكتب ملف الخليل.

١٦- إسرائيل والمقدسات الإسلامية/ دراسات / المركز الفلسطيني للاعلام.

١٧- إسرائيل والمقدسات الإسلامية/ مرجع سابق.